

الفصل الثالث

سُقوط الخلافة الإسلامية
والشعر الذي نُعيت به

سُقُوطُ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالشَّعْرُ الَّذِي نُعِيَتْ بِهِ

كانت الخلافة الإسلامية عبر القرون الطويلة مركزاً دينياً ودنياً على الرغم مما انتابها من ضعف وفقر في بعض الفترات الزمنية . وكان المسلمون ينظرون إلى الخليفة نظرة ولاء وطاعة ، ويرون أنه مسؤول عن رعاية شؤونهم ونجدة ضعيفهم وإسعاف منكوبهم . وكانت الخلافة رمز الرابطة الإسلامية والأخوة الإيمانية التي تجمع المسلمين وتوحد صفوفهم في شتى بقاع الأرض . ولقد ظلت دولة الخلافة الإسلامية عبر القرون الطويلة تتسع وتقوى أحياناً وتتكسح وتضعف أحياناً أخرى .

وحين جاء السلطان عبد الحميد العثماني كانت الخلافة ضعيفة والمسلمون مشتتين . فحاول النهوض بها وتقوية شأنها ولكن محاولته جاءت متأخرة ؛ ذلك لأنه تولى الأمر بعد أن وهت الخلافة ، وتمكنت القوى العالمية من اقتراس بعض بلاد المسلمين واتفقت على إزالة الخلافة .

ولقد استطاع السلطان عبد الحميد العثماني - رحمه الله - أن يتحدى تلك القوى ويصارعها فترة أربت على ثلاثين عاماً ثم انتهت بهزيمته وخلعه . ولقد جاء من بعده خلفاء رمزيون لا حول لهم ولا قوة وأصبح الأمر في أيدي أعضاء حزب الاتحاد والترقي الذين لم يبقوا على الخلافة إلا لكسب ود المسلمين وعطفهم . ثم جاء مصطفى كمال . وتولى الزعامة في تركيا فأبقى على الخلافة أول الأمر وتظاهر بالتدين . فكان يصلي في مقدمة الجنود البسطاء ، ويتملق العلماء ويعطف عليهم . ويستغلهم لشحن النفوس ، ودفعها إلى الاستشهاد لا في سبيل الله كما كان يزعم ، وإنما في سبيل تحقيق أغراضه ^(١) .

ولقد أثر مصطفى كمال في الناس « فالنغمات الإسلامية التي كان الناس يسمعونها منه دائماً ولا يعلمون ما يطوي في قلبه من دونها حملتهم على حبه والثناء عليه بإسراف . من ذلك أنه كان يقول دائماً في خطبه : إخواننا العرب إخواننا العرب ، إخواننا المصريون إخواننا المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها .

(١) الأفعى اليهودية في معازل الإسلام : ص ٩٠ .

وذكر الأمير شكيب أرسلان أن مصطفى كمال قال له ذات مرة : لا بد أن نسترجع القدس إن شاء الله وهذا محقق وإنما أقول إن شاء الله كمسلم لا أقول إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » (١) .

وبعد أن قوي شأنه وفُتِنَ الناس به بدأ في تنفيذ ما أُملِيَ عليه من قبل أسياده النصارى واليهود فأعلن فصل الدين عن الدولة وتناول على الخليفة العثماني وحيد الدين فعزله عن السلطة وعين الأمير عبد المجيد بدلاً منه . يقول مصطفى صبري شيخ الإسلام في تركيا الذي فر إلى مصر : « تساهل الإنجليز مع مصطفى كمال ليجعلوا منه بطلاً في حين تشددوا في معاملة الخليفة وحيد الدين حتى أعجزوه وذلك لتعظيم الافتتان بكمال في أبصار المسلمين وبصائرهم » (٢) .

ثم أعلن مصطفى كمال قيام الجمهورية التركية واتخذ أنقرة عاصمة لجمهوريةه بدلاً من الآستانة مركز الخلفاء العثمانيين ، وأبقى على الخلافة وترك الناس في حيرة من أمرهم ما بين مؤيد لإجراءاته هذه ومعارض لها .

ثم حسم مصطفى كمال هذا الاضطراب وهذه الحيرة بأن فاجأ الناس بإلغاء الخلافة الإسلامية ، وطرد الخليفة العثماني عبد المجيد وأسرته ، وأعلن علمانية الدولة . وسلك سياسة المراحل فسلخ تركيا من دينها مرحلة بعد مرحلة (٣) وأصبح العالم الإسلامي لأول مرة منذ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم . بلا خلافة .

هذا ولقد أنكر المسلمون على مصطفى كمال إلغاء الخلافة ونادوا بإحيائها ودعوا إلى اختيار خليفة لهم ، وعقدوا مؤتمراً إسلامياً لهذا الغرض في مصر حضره عدد من علماء الأقطار الإسلامية برئاسة شيخ الأزهر وذلك في شهر شعبان سنة ١٣٤٢ هـ الموافق ١٩٢٤ م . وقد أفتى هذا المؤتمر ببطان بيعة عبد المجيد الذي كان الكماليون قد جاءوا به قبل إلغائهم للخلافة وجردوه من السلطة . ودعا المؤتمر ممثلي الأقطار الإسلامية إلى الاجتماع بالقاهرة مرة أخرى في العام القادم ، وحُدِدَ شهر شعبان موعداً لانعقاده وذلك للبت فيمن يجب أن تسند إليه الخلافة الإسلامية .

ولكن هذا المؤتمر أجل مرة بعد أخرى ولم يعقد إلا في أول ذي القعدة سنة ١٣٤٤ هـ الموافق ١٩٢٦ م . وكان اجتماعاً مخففاً لم يسفر عن شيء ، وذلك لتنافس كل من الملك

(١) شوقي أو صداقة أربعين سنة : ص ٢١٥ .

(٢) تاريخ الدولة العثمانية : ص ٢٨٩ .

(٣) انظر مقالاً للأمير شكيب أرسلان بصحيفة الفتح : العدد ٥٨ (٢١ صفر سنة ١٣٤٦ هـ) .

فؤاد : والحسين ^(١) بن علي وأمان الله خان ملك الأفغان على هذا اللقب . كما كان الإنجليز من وراء إفساده فهم يعارضون قيام الخلافة الإسلامية ! كيف لا وهم الساعون لهدمها ؟ .
يقول لورانس أحد الوزراء الإنجليز : « علينا أن ندفع بالغرب لانتزاع حقوقه من تركيا بطريق العنف ... لأننا بهذا نقضي على خطر الإسلام وندفع به (أي بالإسلام) لإعلان الحرب على نفسه وبذلك نمزقه من القلب ؛ إذ ينهض في مثل هذا الصراع خليفة في تركيا وخليفة في العالم العربي ويخوض الخليفان حرباً دينية وبذلك يقضي على خطر الخلافة الإسلامية بصورة نهائية ... » ^(٢) .
هذا ولقد حذر شوقي المسلمين من الشريف حسين الذي حاربهم مع الإنجليز ثم أظهر رغبته في الخلافة فقال : ^(٣)

لا تبدلوا بُردَ النبي لعاجز عَزَل يدافع دونه بالراح ^(٤)
بالأمس أُوهِى المسلمين جراحة واليوم مدَّ لهم يد الجراح

ثم خوف المسلمين من الفتنة التي يوشك أن يقع فيها أمراؤهم حين يتنافسون على منصب الخلافة ويتنازعون عليها بعد أن تنحى الأتراك عنها فقال :

فَلْتَسْمَعَنَّ بكل أرض داعياً يدعو إلى (الكذاب) أولسجاح ^(٥)
وَلْتَشْهَدَنَّ بكل أرض فتنَةً فيها يباع الدين بيع سَمَاح
يُفْتِي على ذهب المُعَزَّ وسيفه وهوى النفوس وحقدها الملحاح ^(٦)

وبالمقابل وجد من الشعراء من دعا المسلمين إلى الاجتماع حول الحسين بن علي وفي

(١) انظر صحيفة القبلة التي كانت تصدر في الحجاز آنذاك حيث قادت الدعوة إلى مبايعة الحسين بن علي وهاجمت الكمالين ، ونشرت بريقات المبايعة له . وأذاعت بلاغته للعالم أجمع وخاصة الأعداد : ٧٧٠ - ٧٧١ - ٧٧٢ - ٧٧٣ - ٧٧٤ .

(٢) تاريخ الدولة العثمانية : ص ٢٦٢ .

(٣) الشوقيات : جزء ١ . ص ١٠٩ .

(٤) العاجز : هو الشريف حسين - والراح : جمع راحة وهي بطن الكف .

(٥) الكذاب : هو مسيلمة كذاب النمامة - سجاح : امرأة كانت ادعت النبوة .

(٦) ذهب المعز وسيفه : هو ما كان يبذله المعز لدين الله الفاطمي في مصر من مال لمن أطاعوه وعقاب لمن خالفوه .

مقدمتهم الشاعر أبو الفضل الوليد الذي كان نصرانياً فأسلم فقد حضّ المسلمين على الوحدة ودعاهم لمبايعة الحسين في قصيدة طويلة قال فيها :^(١)

وما قوة الإسلام إلا بسدولة خلافة بالمسلمين قويّة
فقل لجميع المسلمين تجمعوا ووصونوا وقار الدولة الهاشمية
ألا يا بني الإسلام كونوا عصابة فلا قوة إلا بحب وألفة
ولا قدرة بعد الشتات على العدا بغير اتحاد فيه توحيد غاية

ثم أمرهم أن يأخذوا بأسباب القوة ويوحدوا صفوفهم فقال :

خذوا من أعاديكم وعنهم سلاحهم به تكشفوا أسرار فن وصنعة
فعبوا لهم طامي الضفاف عرمرما كتائبه للحرب والسلم صُفّت
ورصّوا كبنيان فخمٍ صفوفه لكي تُرهبوا الأعداء من غير حملة
فلا منعة إلا بجيش منظم يجمع أبناء البلاد كإخوة

وبعد أن أصبحت الخلافة أثراً بعد عين . وأخفقت الجهود المبذولة لإحيائها شعرت الصحف الإسلامية بالنكبة التي حلت بالمسلمين لفقدائها وطفقت تكتب المقالات التي تشيد بها وتحض عليها . من ذلك ما نشرته صحيفة الفتح لصاحبها محب الدين الخطيب حيث قالت :^(٢) : الخلافة الإسلامية هي الركن الاجتماعي السياسي المدني في الدين الإسلامي . وهي الظل الذي يستظل به كل مسلم وإن نأت داره وبُعد مزاره .

الخلافة الإسلامية هي رمز الوَحْدَةِ الإسلامية وحجر الزاوية في بناء صرح القوة للمسلمين .

الخلافة الإسلامية هي التي مدت رواق الإسلام من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب . الخلافة الإسلامية هي التي جعلت فتوحات المسلمين معجزة التاريخ وأعجوبة الحوادث الكونية .

الخلافة الإسلامية هي التي أخضعت أعنى الملوك وأقواهم . حتى في إبان ضعفها وتضعفها .

(١) ديوان أبي الفضل الوليد : ص ٣٦٥ .

(٢) صحيفة الفتح : العدد ٢١٣ (٢٦ ربيع الأول سنة ١٣٤٩ هـ) .

الخلافة الإسلامية هي عروة الجامعة التي نسعى إليها جاهدين ... ولقد ألفت الكتب في الدفاع عن الخلافة وبيان وجوبها في الإسلام والإشادة بمحاسنها . وقامت معركة بين أنصارها وخصومها . ومن أهم الكتب التي ألفت في الدفاع عنها وبيان أهميتها كتاب (النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة) لمصطفى صبري شيخ الإسلام في تركيا الذي فر من الكمالين . وكتاب « الخلافة أو الإمامة العظمى » لمحمد رشيد رضا . وكتاب « جبل الاعتصام ووجوب الخلافة في دين الإسلام » لمحمد حبيب العبيدي مفتي الديار الموصلية .

أما الكتب التي أيدت مصطفى كمال في إلغائه الخلافة فأخطرها كتاب « الإسلام وأصول الحكم » لعلي عبد الرزاق حيث قرر فيه أنه لا أصل للخلافة في الشريعة الإسلامية . وكتاب « الخلافة وسلطة الأمة » لمؤلف مجهول . وقد ترجمه إلى العربية عن الأصل التركي عبد الغني سني .

هذا ولقد تناول الدكتور محمد محمد حسين هذه الكتب - عدا كتاب العبيدي - بالتفصيل والتحليل في كتابه الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ^(١) .

وكان الأمير شكيب أرسلان أحد الذين تحدثوا عن أهمية الخلافة وأثرها في وحدة المسلمين حيث قال : « كانت الخلافة أحسن علاقة جامعة بين المسلمين . وكان أربعمائة مليون مسلم في العالم يتولون حكومة تركيا بحجة أنها دولة الخلافة فجاء مصطفى كمال وقضعت هذه العلاقة بين تركيا والعالم الإسلامي . وزعم أنه لا يلوي على علاقة غير علاقة الترك خاصة . وأن سائر المسلمين والأجانب في نظره سواء . وهو أمر مخالف للحقيقة وللواقع والمصلحة » .

وذكر الأمير شكيب أن أنور ^(٢) قال له : « إن الأتراك الذين في روسيا لا يعطفون علينا نحن أتراك تركيا بسبب أننا أتراك بل بسبب أننا مسلمون . وهؤلاء الياقوت الذين هم في سيبيريا هم ترك في المحتد مثلنا ولكن نظراً لكونهم وثنيين لا يعطفون علينا ولا نعطف عليهم ولا يعرفوننا ولا يعرفهم » ^(٣)

هذا ولقد انبرى الشعراء على اختلاف بيئاتهم يعلنون على الملأ اعتذارهم عن مدح مصطفى كمال بالأمس . ويرثون الخلافة أبلغ رثاء وأوفاه . ويدعون المسلمين إلى اليقظة والحذر مما يديره لهم أعداء الإسلام .

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : جزء ٢ . ص ٥٥ وما بعدها .

(٢) أنور : هو الذي تولى رئاسة الحكومة التركية قبل مصطفى كمال .

(٣) شوقي أو صداقة أربعين سنة : ص ٢١٤ .

فنظم شوقي قصيدته الحائية التي رثى فيها الخلافة . ولام مصطفى كمال واعتذر عن مدحه له وصور فيها أحزانه على ذلك الخطب . وتخيل الخلافة عروساً ماتت فجأة فتبدل العرس مأتماً . والفرح حزناً فقال : (١)

عادت أغاني العرس رجع نواحي	ونعت بين معالم الأفراح
كفنت في ليل الزفاف بثوبه	ودفنت عند تبلج الإصباح
شيعت من هلع بعبرة ضاحك	في كل ناحية وسكرة صاح

ثم صور حالة الأقطار الإسلامية وقد هالها الأمر وأمضها الخطب فلبست على الخلافة ثوب الحزن . وأقامت لفقدها المآتم فقال :

ضجت عليك مآذن ومنابر	وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهة ومصر حزينة	تبكي عليك بمدمع سحاح (٢)
والشام تسأل والعراق وفارس	أما من الأرض الخلافة ماح ؟
وأنت لك الجمع الجلائل مأتماً	فقعدن فيه مقاعد الأنواح (٣)

ولقد أبدى الشاعر عجبه من هدم هذا المجد العظيم بهذه السرعة . ونبذ تلك الرابطة الوثيقة التي تجمع القلوب وتوحد الصفوف فقال :

حسب أنى طول الليالي دونه	قد طاح بين عشية وصباح (٤)
وعلاقة فُصمت عرى أسبابها	كانت أبرّ علائق الأرواح
نظمت صفوف المسلمين وخطوهم	في كل غُدوة جمعة ورواح

ثم هاجم مصطفى كمال ونعته بالعبث والضلال والكفر فقال :

بكت الصلاة . وتلك فتنة عابث بالشرع عربيد القضاء وقاح (٥)

(١) الشوقيات : جزء ١ . ص ١٠٦ - ١٠٩ .

(٢) النواهة : الحزينة أو التي ذهب عقلها حزناً - سحاح : كثير السح . وهو سيلان الماء من أعلى إلى أسفل .

(٣) الجمع : واحدها جمعة . وهي الصلاة المفروضة بهذا الاسم - الأنواح : النائحات .

(٤) طاح : ذهب .

(٥) نعربيد : الشرير والكثير العريضة . والعريضة سوء الخلق من السكر - الوقاح : ذو الوقاحة وهي قلة الحياء .

أفتى خزعبله وقال ضلالة وأتى بكفر في البلاد براح^(١)

وتابع الشاعر المهجوم على مصطفى كمال في عنف وقوة واعتذر عن مدحه بالأمس فمن أجل الإسلام وحده مدحه يومذاك . ومن أجل الإسلام وحده يهاجمه اليوم ولا غرو في ذلك فإن الحق أحق أن يتبع .

أستغفر الأخلاق لست بجاحد مالي أطوقه الملام وطسالمنا
الحق أولى من وليك حرمة فامدح على الحق الرجال ولمهمو
من كنت أدفع دونه وألاحي قلدته المأثور من أمداحي ؟
وأحق منك بنصرة وكفاح أو خلّ عنك مواقف النصّاح

ثم دعا الشاعر أرباب العلم والفهم إلى إسداء النصيحة لمصطفى كمال بعد أن أضله الغرور فقال :

أدوا إلى الغازي النصيحة ينتصح إن الجواد يشوب بعد جمّاح^(٢)
إن الغرور سقى الرئيس براحه كيف احتياك في صريع الراح ؟
نقل الشرائع والعقائد والقارى والناس نقل كتاب في السّاح^(٣)
غرته طاعاتُ الجموع ودولة وجد السواد لها هوى المرتاح

ولقد ظل الشاعر مخلصاً للخلافة محباً لها طول حياته لأنها العروة الوثقى التي تجمع المسلمين . ولذا مدح الكمالين ودافع عنهم حين ظن بهم خيراً للخلافة ولما رأى انحرافهم هاجمهم وقلّاهم فقال :

من قائل للمسلمين مقالة لم يوحها غير النصيحة واح
عهد الخلافة في أول ذائسد عن حوضها بيراعة نصّاح^(٤)

(١) خزعبله : الفكاهة والمزاح - جاء بالكفر براحا : أي بينا وقيل جهاراً .

(٢) الغازي : مصطفى كمال وهو المراد بالرئيس أيضاً في البيت الثاني .

(٣) ساح : جمع ساحة وهي ساحة الحرب .

(٤) لذائد : الحامي الدافع - النصّاح : الدافع أيضاً .

حب لذات الله كان . ولم يزل
إني أنا المصباح لست بضائع
وهوى لذات الحق والإصلاح
حتى أكونَ فراشة المصباح

أما الشاعر التونسي محمد الشاذلي الخزنة دار فيعلن أن إلغاء الخلافة أمر لا ترضاه
الشعوب الإسلامية من تركية وعربية فيقول : (١)

لا الترك ترضى بما أجرت حكومتها
في المسلمين وحاشاها ولا العرب

وكان الشاعر يرجو الخير من حركة الكمالين لكن هذه الحركة قلبت الخير شراً
فيقول :

كنا نؤمل منها الخير فانقلبت
هذا الزمان أرانا من حوادثه
تلك الأماني ولما يسكن الغضب
شتى العجائب حتى ينقضي العجب

ثم ندد الشاعر بالكمالين وبادعائهم أن الخلافة عبء ثقيل . وسفّه صنيعهم .
ونوّه بفضل الخلافة عليهم فقال :

قالوا الخلافة عبء قد أضربهم
ألقوا بها بين أيدينا مدحرجة
لولا الخلافة ما نالوا الذي رغبوا
واستصغروا الفعلة الشنعاء وانقلبوا

وأنشأ محمد الخضر حسين قصيدة ندب فيها الخلافة . ونساءل عن أهلها لم هجروها
بعد أن عزّوا بها دهرًا طويلاً فقال : (٢)

ما خَطَبُ قوم طالما وُصِّلوك
حرسوك أحقاباً وحلّق صيتهم
واعترّ باسمك عرشهم هجروك ؟
في الخافقين لأنهم حرسوك (٣)

ثم طفق يخلع على الخلافة جليل الصفات فقال :

(١) ديوان الخزنة دار : جزء ١ . ص ٢٤١ .

(٢) خواطر الحياة : ص ١٢٧ - ١٢٩ .

(٣) الأحقاب : واحدها حقب . ومن معانيه الدهر والسنون .

كنتِ الوقار على وجوه غزاتهم
كنتِ البطولة تزدري نار الوغى
والأمن إن نظروا بعين ضحكوك
والنصريعقد بالقنا المشبوك^(١)
مازلت سمط قلادة خرزاتها
أممٌ بأغلى فدية تفديك^(٢)

ثم وصف الشاعر دستور الخلافة الذي سوى الملك بالمملوك والفتى بالصعلوك فقال :
تصبو إلى دستورك الأحرارُ إذ
يضع الملك بجانب المملوك^(٣)
وزن الحقوق فما الثرىُّ براجح
في حكمه يوماً على الصعلوك

ثم آنب الشاعر مصطفى كمال على فعلته التي فعلها فقال :
ناطوا به أمل النهوض بدولة
رمت الثرى بجناحها المفكوك
نهض الزعيم وما رعى عهد التي
لولا اسمها ما صال صول ملوك

ثم حذر من بطش المسلمين به ونقمتهم عليه فقال :
والقوم قوم « محمد » إن زُحزحوا
عن هديه اقتحموا شعاب النوك^(٤)
وهداة حصن لا أريكة مترف
وزئير ليث لا صياح ديوك

ولقد شرع « عبد المطلب » بنظم قصيدة في تمجيد الأتراك والإشادة بانتصارهم على
اليونانيين وجعل مطلعها :

هذا مقامك شاعر الإسلام
فقف القريض على أجل مقام

لكنه فوجئ بعدوانهم على الخلافة وإلغائهم لها فجمدت قريحته وتوقف قلمه عند
البيت السادس وقد أعلن ذلك فقال : « وكان السبب في وقوفي . جمود القريحة فجأة . »

(١) المشبوك : المخلوط بعضه ببعض . يريد اشتباك الرماح واتصافها من كثرتها .

(٢) سمط القلادة : الخيط الذي ينظم فيه خرزاتها .

(٣) دستورك : الشرع الإسلامي .

(٤) النوك : جمع أنوك . وهو الضعيف العقل .

إذ فاجأتنا أخبار انحراف أولئك النفر» (١) .
ونظم أبو الفضل الوليد قصيدة رثى فيها الخلافة وبكى بلاد المسلمين التي احتلها
الحلفاء فقال : (٢)

الشام يُقهر والعراق يُضام	فاليوم لا عربٌ ولا إسلام
أين العروبةُ والخلافةُ منهما	والمسلمون بلادهم أقسام
لبنى أمية أو بني العباس في	تلك الربوع أمانةٌ وذمام
ذهبت خلافتهم وضاع سريرها	فبكى عليها منبرٌ وحُسام
إن الخلافة بان عنها ربُّها	فالمؤمنون جميعهم أيتام

ثم تساءل عما حلَّ بديار المسلمين بعد أن استولى عليها الأجنبي المستعمر واستنهب
الهمم لإنقاذها فقال :

ما حال مكة والمدينة بعدما	سقطت دمشق وحرَّم الإحرام ؟
هل بعد غزوتها ونكبة أهلها	للمسلمين سلامةٌ وسلام
أو هل تصحَّ خلافةٌ وإمامة	حيث الفرنجة واليهود قيام ؟
الشام نهب والعراق غنيمه	وعليهما يتكالب الأقوام
والحق يصرخ قائلاً في ضعفه	أهل البلاد العرب لا الأعجام

ثم ندب الشاعر الجامع الأموي والمسجد الأقصى والخلفاء الأوائل فقال :

الجامع الأمويُّ فيه جنازة	والمسجد الأقصى عليه ظلام
ومضاجع الخلفاء زال وقارها	والأولياء قبورهم أردام
تلك العظام أكاد أسمع خشفها	ولو أنها نطقت لطلال ملام
وقف العلوج بها وداسوا تربها	ولأهلها فوق النجوم مقام

ولقد عجب الشاعر أشد العجب من سكوت المسلمين على ما وقع من خطب فقال :

(١) ديوان عبد المطلب : ص ٢٥٣ .

(٢) ديوان أبي الفضل الوليد : ص ١٤٦

فعمجت كيف الأرض لم تخسف ولم
والله لو نظروا إليها خشعاً
غضبت له الأملاك فهي كظيمة
وعلى الوجوه من الكآبة سدفة
ينهد يذبل خشيةً وشَمَام
من فرسخين لقلت ذلك حرام
واسودت الأفلاك فهي قمام
وعلى الجفون من الدموع دمام

أما محمود غنيم فنظم قصيدة رائعة افتتحها ببكاء الخلافة التي درست فقال : (١)
عهد الخلافة في البسفور قد درست
ما للخلافة ذنب عند شائنها
آثاره طيب الرحمن مثواه
قد يظلم السيف من خائنه كفاه (٢)

ثم أشاد برابطة الإسلام التي تجمع الأفئدة وتوحد القلوب فقال :
إني لأعتبر الإسلام جامعة
أرواحنا تتلاقى فيه خافقة
دستوره الوحي والمختار عاهله
للشرق لا محض دين سنه الله
كالنمل إذ يتلاقى في خلياه
والمسلمون - وإن شتوا - رعاياه

ثم سأل الله أن يهب المسلمين الإمام الصالح الذي يصون الإسلام ويرعى بنيه فقال :
لا همم قد أصبحت أهواؤنا شيعاً
راع يعيد إلى الإسلام سيرته
فامنن علينا براع أنت ترضاه (٣)
يرعى بنيه وعين الله ترعاه

أما أحمد محرم فنظم قصيدة من روائع قصائده صور فيها أحزانه وأشجانه على فقد الخلافة ، وقد افتتحها بمسألة (فروق) فقال : (٤)

أعن خطب الخلافة تسألينا ؟
هو العرش الذي استعصمت منه
أجيبني يا (فروق) فتى حزينا
بركن الدهر . واستعليت حينا

(١) صرخة في واد (ديوان محمود غنيم) : ص ٧٨ - ٨٢ .

(٢) شائنها : مبغضها .

(٣) أصبح القوم شيعاً : تفرقوا .

(٤) ديوان أحمد محرم : مخطوط .

ثم طفق يبكي ويندب قوة الخلافة التي لا تقهر وجاهاها الذي لا يغلب فقال :
 فأين البأس يقتحم المنايا ؟ ويلتهم الكتائب والحصون
 وأين الجاه يعمر كلَّ جاه وإن جعل السمَّك له سفينا ؟
 تدفق يأخذ الأقطار طُراً وينتظم القياصر أجمعينا

ثم انتقل إلى البكاء على الخلفاء بعد أن بكى الخلافة فقال :
 مضى الخلفاء عنك فأين حلوا ؟ وكيف بقيت وحدك ؟ خبرينا ؟
 ولو أوتيت برّاً أو وفاءً إذن لطعنت إثر الطاعنين^(١)

ولم ينس الشاعر قصر الخلافة الذي تبدل عزه ذلاً . وقوته ضعفاً ونوره ظلاماً فقال :
 أيلدز ما دهاك ؟ وأيُّ رام رماك ، فهذه سؤددك المكيّنا ؟^(٢)
 خفضت له الجناح . وكنت قدما حمى الخلفاء يأبى أن يدينا^(٣)
 وجلّلك الظلام وكنت نوراً يفيض على شعوب المسلمين

ثم هاجم الشاعر السياسة التي تدوس الحرمات لتحقيق الأطماع . وتخلق الأعداء
 لبلوغ الغايات . وتتلون تلون الحرباء فقال :
 ولم أر كالسياسة في أذاها وفي أَعذارها تُزجي مئينا
 تغير على الأسود . فتحتويها وتزعم أنها تحمي العرينا
 تريد فتخلق الأصباغ شتى وتبتدع الطرائق والفنوننا
 وتتخذ السدم المسفوك ورداً تظنّ زعافه الماء المعينا^(٤)
 أداة الغدر . ما حفظت ذماماً ولا احترمت خليطاً أو قرينا^(٥)

(١) ظعن : ذهب وسار .

(٢) يلدز : هو قصر السلطان العثماني في استانبول .

(٣) يدينا : يذل .

(٤) الورد : الماء الذي ترد عليه - الزعاف : السم القاتل .

(٥) الخليط : المخالط كجليس ومجالس - القرين : الصاحب .

ثم أهاب الشاعر بالعثمانيين أن يصبروا على ما أصابهم ويتحلوا بالإيمان فقال :
 (بني عثمان) إن جزعا . فحقَّ وإن صبراً . فخير الصابرينا
 أعدوا للنوائب ما استطعتم من الإيمان . وادرعوا اليقيننا

ثم عزَّى الشاعر نفسه على ما حدث ؛ فالخلافة التي ألغيت لم تكن إلا شعباً هزلياً
 بعد أن خذلها المسلمون وتحالف عليها مع الأجنبي بعض الطامعين فقال :
 وما نفع (الخلافة) حين تُمسي حديث خرافةٍ للهازلينا ؟
 ثوت تتجرَّع الآلام شتى على أيدي الذُّهاة الماكرينا (١)

ثم عاد الشاعر إلى التحسر على الخلافة التي ظلت موئلاً للمسلمين إلى أن أصابها
 الضر على أيديهم ونالها الأذى منهم فقال :
 تغيث المسلمين إذا استغاثوا وتنصرهم على المستعمرينا
 فلما جدَّ جدُّ الحرب كانوا قُوى الأعداء ترمي الناصرينا
 منعنا الظُّلم أن يطغى عليهم فخانونا . وكانوا الظالمينا
 نصاب لأجهم . ونُصاب منهم فإن تعجب . فذلك ما لقينا

وهاجمت صحيفة الفتح المصرية مصطفى كمال وأخذت تنشر تباعاً أنباء محاربته
 للإسلام وهدمه لمعالمه في تركيا . وتواتت مقالاتها في فضيحة الكماليين وتحذير المسلمين
 منهم

وكانت هذه الصحيفة قد أوردت في جملة ما أوردته عن فساد مصطفى كمال أنه
 ألقى القرآن الكريم ذات يوم من يده على الأرض وقال : (٢) « إن ارتقاء الشعوب - أي
 مهارتها في الرقص واحتساء الوسكي وأكل لحم الخنزير والتقدم في الموبقات - لا يصلح
 أن يقيد بقواعد وقوانين سنَّت في العصور الغابرة » .
 وأشارت المجلة إلى أنه حوّل قصر الخلافة « يلدز » إلى خمارة وبُورَة فساد كبيرة

(١) ثوب : أقامت .

(٢) صحيفة الفتح : العدد ٦٩ (٩ جمادى الأولى سنة ١٣٤٦ هـ) .

(٣) صحيفة الفتح : العدد ٦٣ (٢٦ ربيع الأول سنة ١٣٤٦ هـ) .

يديرها إيطالي من كبار الاخصائيين في الموبقات (٣) ! ولم يرع حرمة هذا القصر الذي كان محط أنظار المسلمين !!

ونشرت المجلة نفسها في عددها السادس والثمانين (١) مقالاً حزيناً في ذكرى إلغاء الخلافة الإسلامية هاجم فيه الكاتب مصطفى كمال فقال : (قلبي اليوم ما أحزنه . وبالي اليوم ما أكسفه ! كل الجرائد نشرت خبر قرار حزب الشعب إلغاء الخلافة وإلغاء الأوقاف وإخراج وزير الشريعة من مجلس الوزراء .

أليس هذا من عجائب العصر؟ مصطفى كمال الذي كنا نشيد باسمه وندعو له ونبارك عليه ونرجوه لرفعة الإسلام وإعزازه يفعل هكذا بالإسلام . ويهزأ هكذا بعواطف المسلمين ! اللهم لا حول ولا قوة إلا بك . أنت الله مالك الملك . قلوب عبادك بيدك . ونواصيهم بيمينك ومصيرهم جميعاً إليك .

والله ما حارب الجندي الأناضولي إلا بدافع الدين الإسلامي . ولولا جامعة هذا الدين والله ما نصره الهنود والأفغان . ولا دعا له المصريون .

ولولا ثورة الهنود غيرة على هذه الخلافة التي خلع مصطفى كمال طوقها . ولوى بيده عنقها ما رأى مصطفى كمال الفوز الذي رآه . ولا نال المركز الذي ناله .

أيسئهم مصطفى كمال هكذا بعواطف المسلمين ويجعلهم مثلة وسخرية في أعين أنفسهم إن لم يكن في أعين أعدائهم ؟ لقد كان بالأمس يهتف باسمه الصبية ويرجوه العامة . وتدعو له العجاثر ، أما اليوم فقد انقلب الدعاء له دعاء عليه والثناء عليه قدحاً فيه . ورجاء المسلمين فيه غمماً وأسى وحنقاً .

لقد كانت بعض الألسنة تتحدث بأن الرجل يشرب الخمر فكانت القلوب تأبى التصديق . وكان بعض الناس يظن فيه وفي زمرة اللادينية ، فكانت النفوس تسرع جازمة إلى التكذيب ، ولكن كأن حديث القوم كان حقاً . ونذير الخطر كان صدقاً .

ولعمري ما أظن إلا أن ذلك الرجل ومن معه كانوا مبينين ذلك حين قاموا بحركتهم الأولى ضد وحيد الدين .

ولعمري لقد كان في بعض ما نطقوا به من وجوب التفرنج ، وما فعلوه من إباحة الخمر بعد منعها ، وإكراههم النساء على مخالطة الرجال ورفع الحواجز بين مجالس النساء ومجالس غير النساء في عربات الترام ، لقد كان في ذلك كله . وفي سحب مصطفى كمال زوجته وراءه في كل مجلس دليل على نفس الرجل ونفس من معه . ولكن عقول البشر لا

تصدق بالشر إلا مكرهه . والنفوس تدافع التسليم بانهباء آمالها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً .
فها قد كشف الرجل عن نفسه فظهرت خبيثته فما عسى أن يفعل المسلمون الآن ؟

اللهم إن الإسلام دينك . والمسلمين عبادك .

اللهم فلا تدع دينك من غير ناصر ولا تدع عبادك يلعب بهم أولو الأهواء ويوردونهم
مورد الهلكة .

اللهم واهد المسلمين إلى دينك ودين نبيك الكريم وصحبه . وقبض لهم من يحملهم
عليه لا من يصرفهم عنه . واكف الإسلام شر أعدائه من أهله وغير أهله فإنه لا يقدر على دفع
البلاء سواك .

ويقرر أحد الضباط الأتراك الذين رافقوا مصطفى كمال في حروبه ولازموه أنه
كان ماسونياً . وأنه حين قام بإغلاق المحافل الماسونية كان ذلك منه ذراً للرماد في العيون .^(١)
ولقد أشادت دائرة المعارف الماسونية بمصطفى كمال حيث جاء فيها أنه (الأخ العظيم
الذي أفاد الأمة : فقد أبطل السلطنة وألغى الخلافة . وأزال المحاكم الشرعية . وألغى
دين الدولة الإسلام . كما ألغى وزارة الأوقاف ... أليس هذا الإصلاح هو ما تبتغيه الماسونية
في كل أمة ناهضة ... ؟ فمن يماثل أتاتورك من رجالات الماسون سابقاً ولاحقاً ... ؟)^(٢)

هذا ولقد نشرت صحيفة الفتح عدداً من القصائد في غرور الكمالين ومصيبة الناس
بهم بعث بها إلى الصحيفة بعض قرائها في سائر الوطن العربي ومن تلك القصائد الأبيات
التالية لمحمد الباقر العلوي من حضرموت :^(٣)

يا ساكني الدنيا انظروا	شمس الظهيرة لا توارى
الترك قد أضحووا على	أحياء أهل الأرض عارا
في غيبهم يتخبطو	ن كأنهم صرعى سكارى
لا مسلمين ولا يهو	د ولا مجوس ولا نصارى

وذكرت هذه الصحيفة في عدد آخر تشطيراً لهذه الأبيات لشاعر من شعراء الشام
هاجم فيها الكمالين ، ووصفهم بالفسق . ونعتهم بالفجور والضلال فقال :^(٤)

(١) الرجل الصنم : ص ٤٩٢ .

(٢) الأفي اليهودية في معادل الإسلام : ص ٩٦ .

(٣) صحيفة الفتح : العدد ١١٧ (٢٧ ربيع الثاني سنة ١٣٤٧ هـ) .

(٤) صحيفة الفتح : العدد ١٢١ (٢٥ جمادى الأولى سنة ١٣٤٧ هـ) . ولم تذكر الصحيفة اسمه .

فالليل عاد لكم نهارا
شمس الظهيرة لا توارى
أكباد أهل الدين نارا
أحياء أهل الأرض عارا
ن . شبايبهم وكذا العذارى
ن . كأنهم صرعى سكارى
د فمنهما انسلخوا جهارا
د فلا مجوس ولا نصارى

يا ساكني الدنيا انظروا
فعن البصير - وإن نأى -
الترك قد أضحوا على
ملأت فضائح زيغهم
في غيهم يتخبطو
وبفسقهم يتقلبو
لا مسلمون ولا يهـو
قد حطموا كل القيـو

وأنب شاعر آخر من شعراء « الفتح » الكماليين الذين أضاعوا المجد . ونبذوا الإيمان .
وسلكوا طريق الفساد فقال : ^(١)

وطوى الزمان مآثر الأجداد
وتناثرت بحوادث وعوادي
تزجي ذرائعها بغير رشاد
تسطو وهم في غفلة وتمادي
عبثوا . فباعوا مجدهم بفساد
فتصير للشيطان شر سناد

غفت المفاخر بين ذاك الوادي
وتضعضت قمم الكرامة والنهى
لم يبق إلا عصابة مفتونة
ما بين مهزلة تمر . ونقمة
عبثوا بما يستنه الإسلام بل
يرمون بالإيمان عن أعطافهم

وأعلن الشاعر أنهم عصابة خذلان اشتروا الضلالة بالهدى . وقفوا أنفسهم على هدم
الشريعة الإسلامية وأنى لهم ذلك . فقال :

ختمت بياض جهادها بسواد
فتراجعوا بخسارة وكساد
والله يرفع نوره بعماد
طعناتهم لصدورهم بسداد

هم عصابة الخذلان والفئة التي
وهم الألى اشتروا الضلالة بالهدى
ما ثلّ نور الله من أفواههم
هم حاولوا طعن الشريعة فأنثت

(١) صحيفة الفتح : العدد ١٢١ . والشاعر هو يحيى محمد علي البكري .

ثم تهكم الشاعر على الكمالين . ونعتهم بالفَسَقَة الفجرة الملمدين فقال :
 يغدون في طول البلاد وعرضها يدعونها للفسق والإلحاد
 في كلّ مجتمع وكلّ محلة يبدو خطيب بينهم ومنادي
 جنت بهم للمخزيات وساوسُ سامتهم خبلاً وبئس الحادي
 يحتاج مذكر ويكرم أخرق وبغز مهذار ويخذل هادي

وأكد الشاعر أن مصيرهم إلى الإخفاق . وأن الله لهم بالمرصاد فقال :
 والحقّ أبلج لن يعاقب بإفكهم والله للباغين بالمرصاد
 ومعالم الفرقان يدعم أسما ذود الحماسة وصولية الآساد

ونشرت جريدة الفتح أيضاً قصيدة لشاعر أخفى اسمه عنوانها « دمعة على الخلافة »
 ومطلعها (١)

رحمة الله علينا أجمعين قد أضعنا الدين والدنيا معا

وقد لام الشاعر فيها الكمالين الذين خيبتوا ظن المسلمين وأملهم . وتناولوا على دينهم
 وسخروا منهم فقال :

قلب هل جاءتك أخبار الألى كنت ترجو لتصاريف الزمان
 كنت ترجو أن يسيروا للعلا جاعلين الدين مصباح الأمان
 إنهم يا قلب قد جاروا على ذلك الدين وساموه الهوان
 خيبتوا فيهم ظنون المسلمين بعد أن كانوا رجاء واسعا
 هزئوا منهم في المستهزئين ناله من هُزء ما أوجعا

وتوجه الشاعر إلى رجال العلم . وسألهم أن يخبروه عما في الإسلام من عيب حاربه
 الكماليون فقال :

يا رجال العلم . يا أهل التقى يا عباد الله . يا أهل العقول

(١) صحيفة الفتح : العدد ٨٦ (٩ رمضان سنة ١٣٤٦ هـ) .

إن خير القول قول صدقا هل بدين الله عيب يتقى
 نبتوني لست أدري ما أقول طلقوا الدنيا من الدين المبين
 فكذا يزعم حزب الأنضول هدموا من ركنه العالي المتين
 فأتوا في الدين أمراً مفزعا يا له من حدث . ما أفضعا

ثم ولول الشاعر . وندب الخلافة التي ألغاه الأتراك فقال :

يا لقومي . يا لديني . ضربوا إمرة الإسلام في مقتلها
 صيروها شعبتين انقلابوا يهدمون الأصل من معقلها
 زعموها بدعة . قد كذبوا فريفة منهم لا نقبلها
 طردوا عنهم أمير المؤمنين لا عصيا لا ولا مبتدعا
 ألغوا الإمرة لا مكرثين بكتاب الله أو ما شرعا

وختم القصيدة بدعوة الشعوب الإسلامية إلى المحافظة على شريعة الله والتمسك بكتابه ففيها الفوز والنجاة فقال :

ويل نفسي ويل قومي مَنْ لنا ما أرى التعذيب إلا قد أتانا
 عَالَمُ الإسلام أعياء الضننى داؤه الغرب خضوعا وافتنانا
 إن نعد لله عوداً حسناً فسُئِجِنَا كما أُنجى سوانا
 سنة الله مضت في الأولين لن ترى من دونها متسعا
 قد تخلى الله عن أمر الدين صار دين الله فيهم ضائعا

وتطاول مصطفى كمال على بيوت الله فحول جامع أياصوفيا إلى مُتحف وتألم لذلك المسلمون وعبر الشعراء عن ألمهم فقال أحدهم : ^(١)

أيا صُفياً على مأساتك أبكي فقد بُدِّلَتَ إيماناً بشرك
 أشاطرك الأسى والدمع أيضاً فليس سواهما شيء بملسكي
 مُصابك رغم ظاهرة التجافي مُصاب المسلمين بدون شك

(١) صحيفة الفتح : العدد ٤٣٥ (٢٤ ذي القعدة سنة ١٣٥٣ هـ) والشاعر هو محمد صادق عنوس .

ثم تحسر الشاعر على صوت الحق الذي خرس . ونور الإسلام الذي خبا . وبكى لما حلّ بهذا المسجد من فساد وفسق وفجور فقال :

أيا صوفيا بربك أين طيرٌ ترنم فيك دهرًا فوق أيك
مآذنك التي هتفت قرونًا لها قال الغواة اليوم قَدُك

وخاطب محمد صادق عرنوس المسجد بحزن وألم . ودعاه إلى أن يندك على رؤوس زواره فقال :

فمالك لم تدك على رؤوس أت لترى انقلابك شرّ دك
أت لا للصلاة كأمس لكن لرؤية منكر وشهود إفك
تسأل بعضهم دهشًا حزينسا أشعبٌ سيم هذا الضيم تركي ؟
أيا صوفيا أنيأس من هداه فتنظمه « وأندلساً » بسلك ؟

وترحم الشاعر على عهد الخلافة الذي اندرس وموطن العزة الذي انتهك فقال :

سقى الله باسلامبول عهداً بنت فيه الخلافة أيّ ملك
وما زادت بها إلا علوّاً ودعّ تاريخها الفياض يحكي

ثم سخر الشاعر من ادعاء الكمالين بأن الخلافة عبء ثقیل وعقبة في طريق التقدم . وأن الدين سبب الضعف فقال :

ولم نر لادعائهم أساساً بأن طريقها كانت بهلك
وأن الدين أضعفهم فالوا ليلتمسن قوتهم بترك
وذي الأمم التي شاءوا رضاها تقابلهم بسخرية وضحك

وبكى محمد حسن النجفي أيا صوفيا وشكى الأمر لله تعالى فقال : (١)
قفا أيامها الغراء نبكي ونشكو الدهر علّ الله يشكي
ونندب حظها شماء مما أفاء السيف قد منيت بدك

(١) صحيفة الفتح : العدد ٤٣٧ (٩ ذي الحجة سنة ١٣٥٣ هـ) .

ويعجب الشاعر من مصطفى كمال وصحبه الذين تنكروا لدين الله وشرعه فيقول :

أيشقى دين أحمد في بلاد	على أكتافه نعمت بملك
ويرغب عن هدايته أناس	بها عبروا البحار بغير فلك
ضحكت وأدمعي تجري . وبدع	لعمري ضاحك بالدمع يبكي

هذا وجملته القول أن القوى المعادية للإسلام والمسلمين استطاعت بمعونة مصطفى كمال إسقاط الخلافة الإسلامية وتفتيت وحدة العالم الإسلامي وذلك بفصل الخلافة عن السلطة أولاً . ثم الإجهاز عليها نهائياً عام ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٤ . وبذلك استطاع النفوذ الاستعماري أن يحقق غاية أهدافه بالقضاء على وحدة المسلمين ، وتمزيق شملهم . والتهام ديارهم . ثم الحيلولة دون قيام أي اتحاد إسلامي على أي وجه من الوجوه .

* * *